نقولا زيادة: الشيخ الذي هوى

في جحيم الحرب غادرنا المؤرخ نقولا زيادة، ولم يترك لنا فرصة لوداعه، لقد آثر هذا الشيخ الموسوعي، ان يرحل بصمت، بعد ان شهد كيف يطحن ضجيج القذائف والصواريخ لبنان الذي احب.

«الكفاح العربي» التي تضيء في هذه المقالة على سيرته الانسانية والابداعية، تنشر له ايضا آخر ما كتبه في صفحته التي اعتاد ان يكتبها تحت عنوان «من قرنتي».

من قرنتي

السلطان قايتباي المملوكي يزور الشام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م

قبل ان تبرم بوزها، على عادتها إن كتبت تاريخاً، قلت لها هذه الفترة التي اتحدث عنها كانت ذات اهمية في تاريخ بلاد الشام، إذ سبقت انتقال القطر بكامله من المماليك الى العثمانيين سنة ١٥١٦ فقبلت مرغمة لكن بدون «بوز».

سقطت القسطنطينية بأيدي الاتراك العثمانيين سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م على يد محمد الفاتح، واتخذها آل عثمان عاصمة لهم. وعندما اخذ هؤلاء يوجهون انظارهم نحو الاجزاء الجنوبية من آسيا الصغرى، وتدخلوا في شأن امارتين مملوكتين هما دُلْغار وقَرمان، وذلك في حكم خُشقَدَ (٨٦٥ - ٨٧٢هـ/ ١٤٦١-١٤٦٧م).

حاول السلطان قايتباي جهده ان يقف في وجه التقدم العثماني جنوباً، وهو الذي حكم بين ٨٧٢ و٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٦م، واستعاد امارة دفار الى السلطة المملوكية. وهنا، على ما يرى الدكتور عمر تدمري ثارت «حفيظة العثمانيين وتكشفت عن اطماعهم التوسعية الى الجنوب. وقد اخذت حدة الموقف تتصاعد بين الطرفين». ولنذكر على سبيل الاستطراد ان العثمانيين تمكنوا في مطلع القرن الثاني ٩٢٧هـ/١٥١٦م من احتلال بلاد الشام ثم مصر وقضوا على دولة المماليك نهائياً.

ادرك قايتباي ان الموقف منذر بالخطر، فقام بزيارة لبلاد الشام في سنة

مؤرخ ومترجم وبحاثة في التراث، عالي النباهة والدقة العلمية. وهو ايضا اكاديمي رصين، تتلمذ عليه افواج متوالية من طلاب العلم والمعرفة. ترك فيها بصمات لا تنسى. هذا هو نقولا زيادة، الذي خطفه الموت اخيرا عن عمر يناهز ٩٩ عاما، مخلفا وراءه اكثر من ٤٠ كتابا في التاريخ العربي والاسلامي.

انه واحد من معلمي بدايات القرن العشرين، يتميز بالحيوية الجاذبة وتلك المعرفية الغزيرة المتجددة والمصوبة دوما نحو المستقبل على قاعدة ذهبية من فهم علمي متراحب للماضي والحاضر.

كان داعية من دعاة القومية العربية، وكان اول من نظّر لها كتابة. ادرك منذ كان يافعا كيف يواجه المشروع الصهيوني السرطاني، ويحذر من اخطاره بالعقل والمنطق. ولادته كانت في دمشق في العام ١٩٠٧... من ابوين فلسطينيين، وكان الشباب في القدس، اما الرجولة والكهولة ففي بيروت. ومن هذه المحطات اطل على مناطق العرب الاخرى، كاتبا ومعلما ومفكرا بعيد النظر. ومنها ايضا انفتح على حضارات الشرق والغرب ناهلا ومترجما ومقتبسا.

في جامعة لندن في النصف الثاني من الاربعينيات، حصل على شهادة الدكتوراه عن اطروحته: «الحياة المدنية في بلاد الشام ١٢٠٠-١٤٠٠». وقبل ذلك كان اصدر الابحاث الرصينة العميقة، حول تاريخ العرب ورموزهم الريادية وحركتهم القومية. كما تيسر له ان يصدر الكتب/المراجع في التاريخ القديم وتاريخ اوروبا. ثم وسع دراساته باتجاه المغرب العربي ومصر وإفريقيا، وتعمق في كتابات الجغرافيين والرحالة العرب، كما جال في ابعاد التاريخ اللبناني ولا سيما الحديث منه، وكتب في تاريخ الثورة العربية وفي السياسات الاستعمارية، واهتم بتاريخ شعوب العالم الثالث. د.نقولا زيادة من رعيل المؤرخين الموسوعيين الذين ارخوا لحقبات متنوعة، وكانوا في كل ما سجلوه اسياد علم ودقة ووضوح وتجديد.

وهكذا فإن الخصائص المنهجية البارزة التي تميز بها هذا الباحث المؤرخ يمكن اختصارها بالآتي:

– الشمولية والاتساع في المواضيع المعالجة.

– اللغة العلمية السهلة المبسطة.

– الدقة في اعتماد تقنيات المنهجيات التاريخية الحديثة.

على المستوى الاكاديمي وفي مدارس القدس العالية، بدأ د.نقولا زيادة بتدريس مادة التاريخ، ثم انتقل الى الجامعة الاميركية في بيروت، حيث عمل فيها استاذا لمدة تزيد على ربع قرن. تنقل بعدها استاذا زائرا في جامعات غربية عريقة مثل جامعة هارفرد، كما استعانت بخبرته جامعات صاعدة وقتها في الهند ونيجيريا ومصر والاردن... وأشرف على اطروحات الدكتوراه في الجامعتين اللبنانية واليسوعية. انه شيخ المؤرخين العرب، وهو عضو في جامعات علمية عديدة مثل الجمعية الاميركية للاستشراق والجمعية الالمانية للاستشراق والجمعية العلمية العراقية. وهو من جيل المؤرخين المشهورين: فيليب حتي ومحمد شفيق غربال وصبري الصوربوني وفؤاد شكري... وكانت حياته مخضبة بألوان وأطياف وأشكال شتى، ولم تكن الحياة وحدها هي التي اثرت فيه، فقد اسهم هو ايضا في اثراء الحياة الثقافية العربية، ليس بكتبه التاريخية وحسب، وإنما بمقالاته وأبحاثه ومداخلاته ومشاركاته وسخرياته وضحكاته.

أتقن نقولا زيادة لغات عدة منها: اليونانية واللاتينية والالمانية والانكليزية اضافة الى العربية.

في العام ١٩٤٣ صدر له اول كتاب «رواد الشرق العربي في العصور الوسطى»، ومنذ ذلك الحين وصلت دراساته الموسوعية التاريخية نحو اربعين كتابا (منها اثنان بالمشاركة) بالعربية، وستة كتب بالانكليزية، وترجم ستة كتب عن الانكليزية، وكتابا واحدا عن الالمانية بالتعاون مع الدكتورة سلمى الخماش.

له اكثر من ٥١ مؤلفا مطبوعا ابرزها: كتاب العالم القديم (جزءان) وكتاب من التاريخ العربي، وكتاب: كتابات عربية تاريخية، وكتاب صور اوروبية، اضافة الى مؤلفات مثل: عالم العصور الوسطى في اوروبا، وقسم من الفكر العربي الاسلامي، ونشر مجلدين ضخمين مصورين عن سيرته، وكان آخر ما ترجم كتاب لديمتري غوتاس: الفكر اليوناني والثقافة العربية، الذي اصدرته المنظمة العربية للترجمة، وعكف في الفترة الاخيرة على ترجمة كتاب عن المغرب وليبيا.

عاش معظم حياته في لبنان الذي عشقه من الاعماق، وظل رغم تقدمه بالسن صاحب ذاكرة تاريخية وشخصية نادرة، اذ كان يتذكر ادق الاشياء والوقائع والاحداث بكل جزئياتها، وخصوصا تلك التي تتعلق بطفولته وصباه وشبابه. عاصر هذا المؤرخ هزائم القرن العشرين كلها، ولم يكن يدور بخلده وهو يبتسم وجهه شطر بيروت مشيا على الاقدام قادما من الناصرة ان عمر العمر لتلك الرحلة سيطول به حتى الآن، وأنه سوف يموت كما ولد شاهدا على الاجتياح الاسرائيلي الجديد للبنان، بعد ان شهد النكبة في فلسطين.

نقولا زيادة، معلم بلا منازع، بث اسئلة الوعي في عمله الدؤوب على مساحة الوطن العربي كله، انه اصلاحي على طريقته الخاصة وليس على الطريقة المطلوبة اليوم.

قرن من العمر كتب خلاله عن الافكار والشعارات وتوغل كثيرا في تحليل ما حدث عند مطلع القرن الماضي، متسلسلا في تقديم مدركاته للفجائع والنكبات التي مرت بالعرب، وتوغل في دواخل النفوس العربية وحللها منتقدا الزعامات والايديولوجيات وكل ما كان وراء نحر الامة.

حسين نصر الله

٨٨٢هـ/١٤٧٧م، متفقداً قلاعها وحصونها وقواعدها. والرجل كان «لا يقل عن غيره من سلاطين المماليك الذين سبقوه في السياسة والحرب والشجاعة».

وقد دوّن القاضي بدر الدين ابو البقاء المعروف بابن الجيعان هذه الزيارة الرسمية او التفتيشية اذا اردنا استعمال تعبير حديث. وهي رحلة مختصرة من حيث الزمن، فقد تمت في اربعة اشهر (هجرية) وخمسة ايام في سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م.

والرحلة او الزيارة او السفر كما تسمى في تورينو بايطاليا سنة ١٨٧٨، وترجمتها الى الفرنسية مدام ديفونشير (١٩٢٢) وهي الترجمة التي عدنا في كتابنا رواد الشرق العربي (ط١، القاهرة ١٩٤٣، ط ٢ بيروت ١٩٨٦).

لكن الدكتور عمر عبد السلام تدمري، وهو الحريص على وضع الكثير من مصادر تاريخ بلاد الشام بين ايدينا، نشر هذه الرحلة محققة بعنوان «القول المستظرف في رحلة مولانا الملك الاشرف» (وهو اسم الكتاب كما وضعه ابن الجيعان ٨٤٧-٩٠٢هـ/١٤٤٣-١٤٩٧م) وهو من منشورات جروس – برس/طرابلس ١٩٨٤.

وقد اعتمد الدكتور تدمري على نسخ ثلاث في تحقيقه وهي: نسخة دار الكتب المصرية ونسخة مكتبة الاسكوريال باسبانيا ونسخة تورينو المنشورة، على نحو ما اوردنا.

وضع عمر تدمري للكتاب مقدمة اشار فيها الى بدء توتر الامور بين الدولتين العثمانية والمملوكية ايام خُشقدم، واشار الى حكم قايتباي وتتبع ابناء اسرة بني الجيعان في مناصبهم واعمالهم، خاصا المؤلف بكلمة تعريف وافية (ص ٥ – ١٥)، وهي الصفحات التي لخصنا عنها مطلع هذا الحديث.

اما الطريق الذي اتبعه قايتباي في هذه الرحلة العسكرية، اذا صح التعبير، فتدل عليها المدن التي زارها علما اننا نرى أن ننقل فيما يلي بعض ما ذكره المؤلف عن اماكن معينة، لأنه كان يرى اهتمام السلطان بها او لانها كانت تثير طلعته.

وادي التيم: فيه خان رسم بعمارته مولانا المقام الشريف (قايتباي) لنفع المسافرين والقاطنين. ووادي التيم واد عظيم، به اشجار وانهار، لكن طريق بها عقبات (وقد اخبرت ان بعضها سنة ١٩٢٥ وكانت لا تزال على ما وصفها ابن الجيعان). وهذه العقبات عظيمة مهولة، وبعض طرقه لا يمر به سوى الفرس الواحد. وغالب اشجاره من التوت. ومتحصل تلك البلاد من متحصل التوت لأنه غذاء لدود الحرير. (ص ٥٢).

بعلبك – بها رأس العين مشهورة. وبعلبك بلد كبيرة مسوّرة، وبها اشجار وانهار وكروم. ومما فيها من المآكل العظيمة عندهم القنبريس والقرنبيط. وبها معاصر العنب ليعمل منه الدبس والحلوى الجوزية والملبن. ويطبخون الارز بماء العنب ويكتفون به عن العسل، وهو عندهم امر عظيم. (ص ٥٤).

طرابلس – الطريق اليها فيه وعر عظيم. وطرابلس مدينة مشهورة مستغنية عن التعريف. وقد ابطل السلطان بها المكس عن الدباغين. (ص٥٦/راجع في الصفحة نفسها هامش ١١١ حيث اضاف الدكتور تدمري نص المرسوم الذي صدر لهذه المناسبة).

اللاذقية – هي بناء عظيم محكم، بها دكاكين كثيرة خراب وعامر. وهي واسعة الفناء عالية البناء بمينة (بميناء) مستديرة. بها مخازن وبرجان على فوهتها، بهما سلسلة عظيمة... ومينتها مستديرة تسع من داخل السلسلة سبعة مراكب متلاصقة كبار، وبها حمامات عامرة وخراب.

حلب – اجتمع السلطان بعدد من امراء المناطق مثل كامل المملكة الحلبية ونائب صفد ونائب طرسوس وشاه بُداق بن دلغادر. ومما فعله السلطان هناك انه أبطل تحكير المصابن بحلب وأبطل رماية الصابون على التجار بسوق الصابون بحلب. (ص ٧٠).

وجاء السلطان في حلب ايضاً جماعة امراء التركمان. وتمت محاكمات بالميدان. (ص ٧١).

حماه – بلد كبير به انهار ونواعير، واعظم انهاره العاصي وهم يتفاخرون به. والبلد المذكورة بها كباءة وهواؤها متغير وماؤها كذلك، وارضها مرصفة بالحجر الاسود وبعض اهلها عجايب. (ص ٧٧).

قلعة دمشق – وصل السلطان الى قلعة دمشق في المحفّة. وكان الجميع في غاية الوجل بسبب مرضه. لكنه عولج وشفي بعد نحو اسبوع. وبعد ايام جلس بقلعة دمشق وعمل سماطا. وجاء اليه الامراء الشاميون والمصريون والمباشرون. ثم اجتمع الى الناس في الميدان (ص ٨٠– ٨٩) راجع بشكل خاص (ص ٨٠ – ٨١) حيث يوجد وصف لطيف للعلاج والمعالج.

صفد – رسم باصلاح القلعة وعمارتها واجراء الماء من العين الى البلد. (ص ٩٢).

وبعد فانا واحد من الذين احتاج في يوم من الايام لرحلة قايتباي، فاستعنت بالترجمة الفرنسية، ولعل كثيرين مثلي حاروا في امرهم. اما بعد تحقيق الدكتور تدمري للنص فقد اصبحنا كلنا في مأمن من الحاجة.

نقولا زيادة